﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾ [سبأ: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الاستدلالُ بالمُمْكِنِ العجيبِ على وقوعِ البعث

مُناسَبةُ قِصَّةِ داوودَ وسُلَيمانَ ﷺ لِما قَبْلَها، هي: أنَّ أولئك الكُفّارَ أنكروا البَعثَ لاستِحالتِه عندَهم، فأُخبِروا بوقوعِ ما هو مُستحيلٌ في العادةِ ممّا لا يُمكِنُهم إنكارُهُ؛ إذ طفَحَت ببعضِه أخبارُهم وشعراؤُهم، من تأويبِ الجِبالِ والطَّيرِ مع داوودَ، وإلانةِ الحديدِ - وهو الجِرْمُ المُستعصي - وتسخيرِ الرّيحِ لسُلَيمانَ، وإسالةِ النُّحاسِ له، كما ألانَ الحديدَ لأبيهِ، وتسخيرِ الجنِّ فيما شاء مِنَ الأعمالِ الشّاقَّةِ[1].

ذِكْرُ مَن أنابَ وأصابَ بعدَ ذِكْرِ الحَثِّ على الإنابةِ

وأيضًا فإنَّ اللّهَ تعالى لَمّا ذكَرَ مَن يُنيبُ مِن عبادِهِ، ذكَرَ منهم مَن أناب، وأصاب، ومِن جُملتِهم: داوودُ، كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَۚ ٢٤﴾ [ص: 24]، وبيَّن ما آتاه اللّهُ على إنابتِه[2].

تصديرُ الفضلِ؛ لاستنهاضِ الهممِ وإبرازِ كمالِ السُّلطانِ الإلهيِّ

وكذلك فإنَّ اللّه ﷻ لَمّا أشار في الآيةِ السّابقةِ - الَّتي دلَّت على نفوذِ الأمرِ - إلى أنَّه تارةً يَعدِلُ، وتارةً يَتفضَّلُ، وكان الفَضلُ أكثَرَ استِجلابًا لذَوي الهِمَمِ العَليَّةِ والأنفُسِ الأبيَّةِ، بدأ به في عبدٍ مِن رُؤوسِ المُنيبينَ، على وجهٍ دالٍّ على البَعثِ بكَمالِ التَّصَرُّفِ في الخافِقَينِ وما فيهما[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاتَيۡنَا﴾: (أتي) أصلُ الإيتاءِ: الإعْطاءُ، يُقال: آتَى يُؤاتي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 524.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 195.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 455.

إيتاءً، وآتاهُ إيتاءً، أي: أَعطاه، ويُقالُ: لِفُلانٍ أَتْوٌ، أي: عَطاءٌ، وآتاهُ الشَّيْءَ، أي: أَعطاه إيّاه، وآتاهُ على الأَمْرِ: طاوَعَهُ[1]، والإيتاءُ: مُسْتَعارٌ للإنعامِ بالحالِ النّافِعَةِ؛ لأَنَّ شَأْنَ الإعْطاءِ أَنْ يَكونَ تَمْكينًا بالمَأْخوذِ المَحْبوبِ[2]، والمُؤاتاةُ: حُسْنُ المُطاوَعةِ، وآتَيْتُهُ على ذلكَ الأَمْرِ مُؤاتاةً؛ إذا وافَقْتُهُ، وطاوَعْتُهُ[3]، والمقصودُ بالإيتاءِ في الآية: الإعْطاءُ، وهو مُشْعِرٌ بأَنَّ المُعْطَى مَرْغوبٌ فيهِ[4].

2) ﴿فَضْلًا﴾: (فضل) تدُلُّ تصريفاتُهُ على زيادةٍ في شيءٍ، ومن ذلكَ الفضلُ، وهو الزّيادةُ في الشَّيءِ[5]، سواءٌ أكان محمودًا أم مذمومًا، واستعماله في المحمودِ أكثرُ، يُقالُ: فَضَلَ الشَّيءُ فضلًا، أي: زاد، وضدُّه: النَّقْصُ[6]، والفضلُ: الشَّرفُ والخيرُ والرِّزقُ، ورَجُلٌ فاضلٌ: ذو شَرَفٍ وخيرٍ، والإفضالُ: الإحسانُ، والفضائلُ: خصالُ الخيرِ، ويَأْتي الفضلُ بمعنى بقيَّةِ الشَّيءِ، والجمعُ: أَفْضالٌ[7]، والمُرادُ بالفضلِ في الآيةِ: الزّيادةُ في الشَّرفِ والكمالِ، أي: ما أوتي داوود من فضلِ النُّبوَّةِ وفضلِ المُلْكِ، وفضلِ العِنايةِ بإصلاحِ الأُمَّةِ، وفضلِ القَضاءِ بالعدلِ، وفضلِ الشَّجاعةِ في الحربِ، وفضلِ سَعَةِ النِّعمةِ عليه، وفضلِ إغنائه عن النّاسِ بما أُلْهِمَهُ من صُنعِ دُروعِ الحديدِ، وفضلِ إيتائه الزَّبورَ، وإيتائه حُسْنَ الصَّوْتِ، وطولَ العُمُرِ في الصَّلاحِ وغير ذلك[8].

3) ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾: (أوب) تدلُّ اشتقاقاتُهُ على الرُّجوعِ[9]، يُقالُ: آب فلانٌ إلى سيفِهِ، أي: ردَّ يدَهُ إلى سيفه[10]، وآبَ الرَّجُلُ يؤوبُ إيابًا؛ إذا رَجَعَ إلى مُستقرِّهِ، والمآبُ: المرجِعُ، والأَوْبُ: الرُّجوعُ[11]، وآبت الشَّمسُ إيابًا؛ إذا غابَت في مآبِها، أي: مَغيبها[12]، وجاؤوا مِن

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أتي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 179.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 252.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 155.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوب).
(10) الخليل، العين: (أوب).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (أوب).
(12) الخليل، العين: (أوب).

كلِّ أَوْبٍ، أي: من كلِّ ناحيةٍ، والأوّابُ: التّائبُ[1]، والتَّأويبُ: التَّرجيعُ، أي: ترجيعُ الصَّوتِ، وقيل: التَّأويبُ بمعنى التَّسبيحِ، وهو المُرادُ به في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: 18][2].

4) ﴿وَأَلَنَّا﴾: (لين) تدور اشتقاقاتُه على مَعنى الرِّقَّةِ، وضدُّها: الخُشونة[3]، ويُستعمل ذلك في الأجسام، ثمَّ يُستعار للخُلُق وغيره مِن المعاني، فيقال: فلانٌ لَيِّنٌ، وفلانٌ خشِن، وكلُّ واحدٍ منهما يُمْدَحُ به طورًا، ويذمُّ به طورًا آخرَ بحسب اختلاف المواقع[4]، يُقال: لانَ الشَّيءُ يَلينُ لينًا، وشيءٌ لَيِّنٌ ولَيْنٌ: مخفَّفٌ منه، والجمع: أَلْيناء، وليَّنت الشَّيءَ وألْيَنْتُه، أي: صيَّرته لَيِّنًا، ويُقالُ أيضًا: أَلَنْتُهُ، وأَلْيَنْتُه على النُّقصان والتَّمام، مِثْل: أطلتُهُ وأطولتُهُ[5]، والمقصودُ بإلانَةِ الحديدِ في الآية: تَسخيرُ اللّه تعالى الحديدَ لأصابع داوودَ ﷺ حينما يَلْوي حِلَقَ الدُّروعِ، ويغمزُ المساميرَ[6].

5) ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: (سبغ) تدُلُّ تصريفاتُه على تمامِ الشَّيءِ وكمالِه[7]، يُقال: شَيْءٌ سابِغٌ، أَي: كامِلٌ وافٍ، وسَبَغَ الشَّيءُ يَسْبُغُ سُبوغًا: طالَ إلى الأَرض، واتَّسَعَ، والسّابِغةُ: الدِّرْعُ الواسِعةُ، ورَجُلٌ مُسْبِغٌ: عليه دِرعٌ سابِغةٌ، والدِّرْعُ السّابِغةُ: التي تجرُّها في الأرض أو على كَعْبَيْكَ طولًا وسَعةً[8]، ومنه اسْتُعير إسْباغُ الوضوء، وإسباغ النِّعَم[9]، والمُرادُ بها في الآيةِ: الدُّروعُ الكاسيات ذوات الفضول[10].

6) ﴿وَقَدِّرْ﴾: (قدر) تدورُ اشتقاقاتُه على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايته، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كلِّ شيءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: مَبْلَغُهُ[11]، وقَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: ضيَّقته، كأنَّما جعلتُهُ بقدَرٍ،

(1) الجوهري، الصحاح: (أوب).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لين).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (لين).
(5) الجوهري، الصحاح: (لين).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 156.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبغ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سبغ).
(9) الراغب، المفردات: (سبغ).
(10) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 408.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

بخلاف ما وُصِفَ بغير حساب[1]، والتَّقديرُ: جَعْلُ الشَّيْءِ عَلَى مِقْدارٍ مَخْصوصٍ، ومَعْنَى ﴿وَقَدِّرْ﴾ هنا: اجْعَلْهُ على تقديرٍ[2]، أي: أحكمه، وهو أن تَجْعَلَ المَسامير طبق الحِلَق[3].

7) ﴿ٱلسَّرْدِ﴾: (سرد) تدُلُّ تصريفاتُهُ على التَّوالي والتَّتابُعِ[4]، ومِنه السَّرْدُ، وهوَ نَسْجُ ما يخشُنُ، ويغلظ، كنسج الدُّروع وخَرْزِ الجِلْد، يُقالُ: سردٌ وزردٌ، وسرادٌ وزرادٌ، نحو: سِراط وزِراط[5]، والسَّرْدُ أيضًا: الثَّقْبُ، والمَسْرودَةُ: الدِّرْعُ المثقوبةُ، وقيلَ: السَّرْدُ السَّمْرُ، والسَّرْد: الحِلَق، وفُسِّرَ بأنَّه ألّا يَجعلَ المِسمارَ غليظًا والثَّقْب دقيقًا، فيَفْصِمَ الحِلَقَ، ولا يَجعلَ المِسمارَ دقيقًا والثَّقبَ واسعًا، فيتقلقلَ، أو ينخلعَ أو يتقصَّفَ، بل يجعلَهُ على القَصْدِ وقَدْر الحاجَة[6]، والمقصودُ به في الآية: صُنعُ دِرْعِ الحديدِ، أي: تركيبُ حِلَقها ومساميرها التي تَشُدُّ شُقَقَ الدِّرعِ بعضها ببعضٍ، فهي للحديدِ كالخياطةِ للثَّوبِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّٰه سبحانه مخبرًا عمّا أنعَمَ به على عبدِه ورسولِه داوودَ عليه السلام: ولقد أعطينا داوودَ مِنّا نِعَمًا ومِنَنًا، فقلنا للجبال وللطَّير: رَجِّعي معه التَّسبيحَ وردِّديه؛ إذا سبَّح، وذلك بأَنْ تَحْمِلَهُ عليه إذا تأمَّل عجائبَها، فهي له مُذكِّراتٌ، كما يُذكِّر المُسبِّحُ مُسبِّحًا آخر، وألَنّا له مَعدِنَ الحديدِ الصُّلْبِ، فهو يتصَرَّفُ فيه بسُهولةٍ، وأمَرْناه، فقُلْنا له: اصنَعْ مِن الحديدِ دُروعًا تامَّةً كاملةً، طويلةً وافيةً، واجعَلْ نَسْجَ الدُّروعِ على مِقدارٍ مَحدودٍ، ونَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ، واعمَلوا

تعلَّم أهلِ الفَضلِ الصَّنائِعَ لا يَنقُصُ مِن قدرهم، بل ذلك زيادةٌ في فَضلِهم

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (قدر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 157.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (قدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرد).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (سرد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سرد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 157.

عَمَلًا خالِصًا للّه تعالى، موافِقًا لِشَرعِه، إنّي بصيرٌ بما تَعمَلونَهُ مِن أعمالٍ، لا يخفَى علَيَّ شَيءٌ منها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾:

الاستطرادُ بذكرِ حالِ سادةِ المُنيبين مِن أنبياء الله تعالى وأصفيائِهِ

الواوُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدها واردةٌ استئنافًا على وجهِ الاستطرادِ، ووجهُ ذلك أنَّ المُنيبَ لمّا كان لا يخلو مِنَ النَّظر في آياتِ الله على أنَّه قادرٌ على كُلِّ شيء من البعثِ ومن عقاب من يكفرُ بهِ، وكان وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾، فيه إشارةٌ إلى بيانِ ذلك؛ كان موقعُ جملةِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ استطرادًا في ذِكر من أنابَ، وأصابَ؛ لأنَّ داوودَ عليه السلام من المُنيبين المتفكِّرين في آياتِ الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧﴾ [ص: 17]؛ فلإنابته وتأوبيه أنعمَ اللّهُ تَعالى عليه بنِعَمِ الدُّنيا والآخرة، وباركَهُ، وبارك نَسْلَهُ[2].

دلالةُ تصديرِ الجُملة بالتَّأكيدِ:

تقويةُ الخبرِ المُظهِرِ قُدرةَ الله تعالى وإنعامَه على عباده

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمة بلام التَّوكيدِ وحرف التَّحقيق (قد) الواقعتين جوابًا للقسم المحذوف (والله)، وفي تصدير الآيةِ الكريمةِ بالقسم قصدٌ إلى توكيدِ الخبر؛ لكونه أمرًا عجيبًا غيرَ مُعتادٍ، أو لأنَّ هذا الخِطابَ جاء في سياق الرَّدِّ على الكفّار الذين أنكروا البعثَ لاستحالتهِ عندهم، فأُخبِروا بوقوع ما هو مُستحيلٌ في العادةِ مِمّا لا يُمْكِنُهم إنكارُهُ، والغرَضُ مِن نظم هذهِ الأخبارِ مؤكَّدةً بمؤكِّداتٍ عدَّةٍ تقويةٌ للخبرِ بإظهارِ قُدرة اللّهِ تَعالى وإنعامهِ على عباده، والتَّدبُّر في عاقبةِ الصّالحين، كما أنَّ التَّأكيدَ بلام القسَمِ وحرفِ التَّحقيق والقسَمِ المقدَّرِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 222، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 497، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 64، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 676.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

في هذه الآية فيه تنزيلُ المُخاطَبين - بالتَّعريض بهذه القِصَّة - مَنزلةَ مَن يُنكِرُ ذلك؛ لعدم اتِّعاظهم بحال قومٍ مِن أهلِ بلادِهم[1].

دلالةُ (قد) في جُملة ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾:

تحقيقُ وقوعِ الفعل وتقوية الامتنان

(قد) حرفُ تحقيقٍ يُفيد تحقيقَ وقوعِ الفعل وتثبيتَهُ[2]، وجاء التَّعبيرُ به ههنا؛ ليُؤَكِّد أَنَّ الفضل الذي آتاه الله لداوود عليه السلام أمرٌ مُحقَّقٌ وثابتٌ، لا شكَّ فيه، ولا ريب، وفيه تقويةٌ لمعنى الامتنانِ، مِمّا يُعزِّز الشُّعورَ بعظمة هذا الفضل والمنَّة الإلهيَّة على داوود عليه السلام.

نُكتةُ إسنادِ فعل الإيتاء في ﴿ءَاتَيۡنَا﴾:

إبرازُ عظمةِ العطاء المرتبط بجلالةِ المُعطي

قولُ الله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ﴾ معناه: أعطيناهُ إعطاءً عظيمًا دالًّا على نهاية المُكنة بما لنا مِن العظمة[3]، فإسنادُ الفعل ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ والكبرياءِ يوحي بأنَّ هذا العطاء عظيمُ الشَّأن جليلُ القدرِ؛ لكونِهِ صادرًا مِنَ الله تعالى بعظمته وكمال قُدرته، فهو ليس عطاءً عاديًّا، بل هو عطاءٌ مِنَ المالكِ العظيم والرَّبِّ الكريم.

معنى (مِنْ) في ﴿مِنَّا﴾، ونكتةُ التَّقييد بـ ﴿مِنَّا﴾:

شرفُ الفضلِ الَّذي أوتيه داوود شرفًا ذاتيًّا وإضافيًّا

(مِنْ) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ ابتدائيَّةٌ متعلِّقة بـ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، أي: من لدُنّا ومِن عندنا، وذلك تشريفٌ للفضل الذي أوتيه داوودُ عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّاۖ﴾ [القصص: 57][4].

وقُيِّدَ فعلُ الإيتاءِ بـ ﴿مِنَّا﴾ مع أنَّ إسنادَ الفعل إلى ضمير العظمَةِ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ قد يوهِمُ استغناء السّياقِ عَنْ ﴿مِنَّا﴾، إلّا أنَّ المقامَ لمّا كان مقامَ تبيانٍ للمنَّ الذي منحَهُ الله سُبحانَهُ لآل داوود؛ ناسبَ ذكرها هُنا تأكيدًا على مرجعيَّة هذا الفضلِ، وأنَّه مِن عند اللهِ تَعالى، وما كان مِن عند اللهِ ﷻ؛ فإنَّ لَهُ شأنًا عظيمًا، وهذا من مواطن

(1) الأنصاري، أساليب الأمر والنهي، ص: 182.
(2) بهجة صالح، الإعراب المفصل: 9/ 318.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

الذِّكر، فهو فضلٌ مِنّا، أي: بلا واسطةٍ؛ تأكيدًا لِفخامته الذّاتيَّة بفخامَتِه الإضافيَّة[1].

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنَّا﴾:

الاهتمامُ بالمقدَّم لتعظيم المُعطي والتشويق للعطاء

جاء تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ على المفعول الصَّريح ﴿فَضْلًا﴾، وهذا التَّقديمُ يُبرز أنَّ هذه النِّعمةَ العظيمةَ الَّتي أوتيت لداوودَ عليه السلام ليست مِن أيِّ جهةٍ، بل هي مِنَ اللهِ تعالى نفسِهِ، ممّا يجعل العطاءَ يتَّصف بقُدْسيَّة خاصَّة، ويُضفي على الفضل مزيدًا مِنَ التَّعظيم، وفي تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول اهتمامٌ بالمُقدَّم والتَّشويق إلى المُؤخَّر؛ ليتمكَّن في النَّفس عند وُرودِهِ فضلَ تمكُّنٍ[2]، فيلفِت النَّظر أوَّلًا إلى عظمة المُعطي، وهو اللهُ تعالى؛ إذ المتلقّي يدركُ أوَّلَ الأمر أنَّ الفضلَ الذي سيُذكر لاحقًا ليس مجرَّد عطاءٍ عاديٍّ، بل هو عطاءٌ إلهيٌّ صادرٌ مِن اللهِ صاحبِ العظمةِ المُطلقَة.

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿فَضْلًا﴾:

التَّنكيرُ لتعظيمِ هذا الفضلِ وتفخيمِهِ

جاء تنكيرُ لفظ ﴿فَضْلًا﴾ من قوله تعالى: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾؛ تعظيمًا لشأن هذا الفضلِ وتفخيمِهِ، وهذا الفضلُ هو فضل النُّبوءة وفضل الملك، وفضل العناية بإصلاح الأمَّة، وفضل القضاءِ بالعدل، وفضل الشَّجاعة في الحرب، وفضل سعةِ النِّعمة عليه، وفضل إغنائِهِ عن النّاس بما ألهمه مِن صُنع دروع الحديد، وفضل إيتائِهِ الزَّبور، وإيتائه حُسْنَ الصَّوت، وطول العمرِ في الصَّلاح وغير ذلك[3]، فالتَّنكيرُ لتعظيمِه في ذاتِهِ وتكثيرِ أفرادِهِ[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 124، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 265، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 124، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 287.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 124، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.

بلاغةُ الإيجازِ في التَّعبير بمُفرَدة الفضل:

إشـراقـةُ الفضلِ الإلهيِّ نِـعَـمٌ زائـدةٌ واختـصاصات فريدة في النُّبوَّة والملك

قوله تعالى: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ معناه: آتيناهُ نعمةً زائدةً على رُتبة النُّبوَّة والرِّسالة، وهي التي تُستفاد مِنَ الآياتِ الآتي ذكرُها بعدُ، مِن حسن الصَّوتِ البارع، وتسبيح الجبالِ والطَّير معه، وإلانة الحديد له، وبولدٍ شاركه في رُتبة النُّبوَّة[1]، وهذه اللَّفظةُ مِن قبيل إيجازِ القصر؛ لدلالَتِها على معانٍ متكاثرةٍ تندرِجُ تحتها أفضالٌ كثيرة ومتنوِّعة.

لطيفةُ اختصاصِ ﴿دَاوُۥدَ﴾ بالذِّكْر:

اعتبارُ النّاسِ بحُسْنِ عِنايةِ اللهِ تَعالى بالمُنيبين

في ذِكْرِ إيتاءِ اللهِ تعالى داوودَ فضلًا عِبرةٌ للنّاس بحُسْنِ عِناية اللهِ سُبحانَهُ بالمُنيبين؛ تعريضًا بِضدِّ ذلك للَّذين لم يعتبروا بآيات اللهِ ﷻ، وفي هذا إيماءٌ إلى بشارةِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه بعد تكذيب قومِه وضيقِ حاله منهم سيؤول شأنُه إلى عِزَّةٍ عظيمةٍ وتأسيس ملكِ أمَّةٍ عظيمة، كما آلت حالُ داوودَ، وذلك الإيماء أوضحُ في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: 17][2].

دلالةُ فَصْلِ جُملة ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾ عمّا قبلَها:

بيـانُ الفضلِ الإلـهـيِّ الـذي أوتيَهُ داوودُ عليه السلام

فُصِلُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾ عمّا قبلهُ؛ لما بين الجملتين من كمالِ الانقطاع؛ إذ الجملةُ الثّانيةُ جملة إنشائيَّة، وجملة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، وجملة النِّداءِ أيضًا واقعةٌ موقعَ البيانِ ممّا قبلَها؛ إذ الفضلُ وقعَ مُجملًا، ثم جاءَ تفصيلُهُ بعدُ.

براعةُ التَّعبيرِ بالنِّداء في جملة ﴿يَٰجِبَالُ﴾:

جاء النِّداءُ في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ﴾ على حقيقته؛ لأنَّ المُنادىَ هو اللهُ ذو العظمةِ والجلال، فلا شيءَ مِن مخلوقاتِهِ يمتنع عن إجابتِه، فالجماداتُ والأحياء كلُّها مأمورةٌ بأمره، مسيَّرةٌ بمشيئته؛ لذا جاء النِّداءُ هُنا على أبدَعِ ما يكون مِنَ الجمالِ والجلال والعظمَةِ، وسرُّ

(1) مدرِّس، مواهب الرَّحمن، ص: 265.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 155.

هذا الجمالِ: هو تَصْويرُ هذه الأجرامِ العظيمة الرّاسية الصمّاء في صورةِ مَنْ يَسْمَعُ ما يُقال لَها، مِمّا يبعث على الرَّهبةِ والاستكانةِ والخشوعِ أمام هذا النِّداء الرَّبّانيِّ العظيم، وهذا يقودنا إلى عظمةِ سببِ النِّداء، وهو تسبيحُ الله جلَّ في علاه، فالنِّداءُ واردٌ لإرادةِ تحفيزِ مكامن التَّدبُّر لدى النّاس، وبعثِ مواطن التَّأمُّل في خلق الله تَعالى، وهو يخاطب الجبالَ والطَّير، والأرض والسَّماء، وكلَّ شيء في الوجود يسبِّح له، كما قال سُبحانَهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44].

تصويرُ الأجرامِ العِظامِ في صورة مَن يسمَعُ المقالَ؛ بَعْثٌ على الرَّهبةِ والاستكانةِ والخشوعِ

لطيفةُ انتخاب النِّداءِ بأداة البُعد: ﴿يَٰجِبَالُ﴾:

من أفضالِ الله على نبيِّه داوود ﷺ مُشاركة الجبال والطَّير له في التَّسبيح، وهو أمرٌ لم يرد ذِكْرُهُ عَنْ نبيٍّ غَيْره، وفي النِّداء بالياء من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ من الفخامة قدرٌ عظيمٌ؛ إذ فيه الدَّلالةُ على عِزَّة الرُّبوبيَّة وكبرياء الألوهيَّة، حيثُ نادى ربُّ العزَّة والجلال الجبالَ، وأمَرَها، ولو جاء النَّظمُ القرآنيُّ: (آتينا داوود مِنّا فَضلًا تأويب الجبال معه والطَّير)، لم يكن فيه مِنَ الفخامةِ ما جاءَ في الآية الكريمة[1]، وكانت دلالةُ توظيفِ أداة النِّداء (يا) بارزًا في الآية، وهي الَّتي تُستعمَلُ في الأصلِ لنداء البعيد، وذلك موحٍ بعلوِّ شأن المنادَى، ممّا يبُثُّ الشُّعورَ بسَعَةِ استجابة النِّداء الذي يملأ الأرجاء.

الإشـــارةُ إلى فخامةِ النِّداء وعلوِّ قَدْرِ المُنادَى به

دلالةُ مُخاطبةِ الجبال وتنزيلها منزلة العُقلاء:

قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ يُفيدُ أنَّ الجمادَ يُدرِكُ خِطابَ اللهِ ﷻ، ووجْهُ ذلك: أنَّه لولا إدراكُهُ؛ لَكان توجيهُ الخطابِ إليه عَبَثًا، واللهُ ﷻ مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ في أقوالِه وأفعاله، وذلك دالٌّ على إدراكِها التَّأويبَ مع داوودَ والتَّرجيع[2]، وجُعِلَتِ الجبالُ بمنزلة العقلاءِ الذين إذا

انقيادُ جميعِ الخَلْقِ لمشيئة اللهِ تَعالى

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 11/ 287.
(2) العُثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 94.

أمرهم؛ أطاعوا، وأذعنوا، وإذا دعاهم؛ سمعوا، وأجابوا؛ إشعارًا بأنَّه ما مِن حيوان وجماد، وناطق وصامت؛ إلّا وهو مُنقادٌ لمشيئة الله تعالى، غير مُمتنعٍ على إرادته، وذلك لسعَةِ عِزَّة الرُّبوبيَّة وكبرياء الألوهيَّة[1].

دلالةُ اختصاصِ الجبال والطَّير بالأمر بالتَّأويب:

ذِكْرُ الجبالِ والطَّيرِ تأكيدٌ لشموليَّة التَّسبيح

لم يكنِ الموافق لداوودَ ﷺ في التَّأويب مُنحصرًا في الجبال والطَّير، ولكنْ ذُكِرَتِ الجبالُ؛ لأنَّ الصُّخورَ وهي للجُمود، والطَّير وهي للنُّفور تُستبعد منها الموافقة، فإذا وافقَتْه هذه الأشياءُ، فموافقةُ غيرِها مِنْ بابٍ أولى وأحرى، ثم إنَّ في ذلك تعريضًا بمن لم يوافِق مِنَ النّاس في التَّسبيح؛ بأنَّ قلوبَهُم قاسيةٌ أشدُّ من قسوةِ الحجارَة[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(التَّأويب) دون (التَّرديد) و(التَّرجيع):

الإشارةُ إلى التَّسبيحِ المتواصل وتجدُّد العود إلى ذِكْرِ الله في أوقاتٍ مُتكرِّرةٍ

التَّأويبُ: التَّرديدُ والتَّرجيع، يُقال: أوَّبَ فلانٌ تأويبًا؛ إذا رجَّع مع غيرِه ما يقولُهُ، وتأويبُ الجبال مع داوود: هو ترديدُ تسبيحِه[3]، ويَرِدُ التَّأويبُ بمعنى سيرِ النَّهار، فكأنَّ المعنى: سبِّحي نهارَكِ كلَّهُ معه، كتأويب السّائرِ نهارَهُ كلَّهُ[4]، فالتَّأويبُ هنا إشارةٌ إلى التَّسبيحِ المتواصلِ وتَجَدُّدِ العود إلى ذِكْرِ اللهِ في أوقات مُتكرِّرةٍ، وهذا المعنى لا يُعطيه لفظُ التَّرديدِ والتَّرجيعِ؛ إذ ليس فيهما معْنَى العمومِ في الوقتِ.

عِلَّةُ تأنيثِ الفعل ﴿أَوِّبِي﴾:

الإيماءُ إلى عظمةِ التَّسبيح

أمَرَ اللّهُ تَعالى الجبالَ، كما تُؤمَرُ الواحدةُ المؤنَّثة ﴿أَوِّبِي﴾؛ لأنَّ جَمْع ما لا يعقل كذلك يُؤمَرُ، وكذلك يُكَنَّى عنه، ويوصف، ومنه المثلُ: (يا خيلَ اللّه اركبي)، وضوعِفَ فعلُ ﴿أَوِّبِي﴾؛ لإرادةِ المُبالغة تأكيدًا على عظمة هذا الفعل؛ إذ هو تسبيحٌ عظيمٌ مُستمرٌّ من الجبال، يدلُّ على حالٍ مهيبةٍ من الامتثال الكامل والطّاعة[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 456.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 196، والمنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 291.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 785، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 272.
(4) ابن الهائم، التِّبيان، ص: 267، والواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 321.
(5) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 407.

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿أَوِّبِي﴾:

الدَّلالةُ على التَّسخيرِ والتَّكوين تكريمٌ لداوود عليه السلام

الفعلُ ﴿أَوِّبِي﴾ هو أوَّل فعلِ أمْرٍ يُذكر في هذه السّورة، والأمر في أصلِه يدلُّ على طَلب الفعل، ومعنى ﴿أَوِّبِي﴾: رَجِّعي التَّسبيح، وقراءة الزَّبور وغيرهما من ذِكْرِ الله معه كُلَّما سَبَّح، وقرأ، وذَكَرَ، وجاء التَّعبيرُ فيه بالأمر للدِّلالة على عظيم القُدْرَةِ، فالأمرُ في فعل ﴿أَوِّبِي﴾ خارجٌ مَخْرَجَ التَّسخيرِ والتَّكوين، وخروجُ الأمر إلى هذا المعنى مُلائِمٌ لِما تفضَّل الله تَعالى به على نبيِّه داوود عليه السلام من أفضالِ إلهيَّةٍ لم يُعْطَها غيرُه من الأنبياء[1].

معنى (مع) في قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾:

تآلفُ الكونِ في تسبيح الخالق سُبحانَهُ رسالة التَّوحيد بين الجمادات والأحياء

يُشير التَّعبيرُ بالمعيَّة هُنا إلى أنَّ جميعَ مخلوقات الكون، سواء أكانت عاقلةً أم غير عاقلةٍ كالطَّير والجبال، تَجْتَمِعُ في أداء غاية واحدةٍ، وهي تمجيدُ اللهِ تَعالى وعبادته، فالظَّرف (مَعَ) يدلُّ على الاجتماع والمُصاحبة، وهذا يُفيدُ وحدة الكونِ في عبادة الله سُبحانَهُ؛ إذ تجتَمِعُ المخلوقاتُ على اختلافها في أداء غايةٍ واحدةٍ، مِمّا يوحي بعظمة الخالق وقدرته المُطلقة، حيث سبَّحت مع داوودَ عليه السلام الجبالُ والطُّيور والخلائق بدَويٍّ يُبْهِر العقول والأسماع[2].

فهذهِ الوحدةُ والتَّناسق تبعَثُ في النُّفوسِ رهبةً وجلالًا خاصًّا؛ تَدفع الإنسانَ إلى التَّفكُّر في عظمة الخالق، ويحثُّه على الانضمام إلى هذا التَّسبيحِ الكونيِّ، وفي هذه المعيَّة رسالةٌ ضمنيَّةٌ للإنسان؛ لئلّا يَقْسو قلبُهُ أمامَ هذا التَّفاعل الكونيِّ البديعِ.

توجيهُ تقييد أمرِ الجبال بالتَّأويب بقيد المعيَّة ﴿مَعَهُۥ﴾:

بين المُصاحبةِ والتَّمليكِ أسرارُ البيان في تسخير الجبال والرّيح

وردَ في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 79]، فَقُيِّدَ التَّسبيحُ بالظَّرف

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 321، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 457.
(2) ملاحويش آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 498، بهجت صالح، إعراب القرآن الكريم، ص: 199.

(مَعَ)، وكذلك التَّأويب في سورة سبأ، بخلاف ما وردَ في شأنِ الرّيح، فقُيِّدت باللّام ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؟ وذلك لأنَّ الجبالَ لمّا سبَّحت؛ شَرُفت بذِكْرِ الله تعالى، فلم تُضَف إلى داوودَ ﷺ بلام الملك، بل جُعِلَتْ معه بمنزلةِ المُصاحِب، بخلاف الرّيح فإنَّه لم يُذكر تسبيحُه، فجُعلت بمنزلةِ المملوكةِ له، وفي هذه المغايَرة وجْهٌ آخَرُ - على القولِ بأنَّ أَوِّبي معه معناه سيري - أنَّ الجبلَ في السَّيرِ ليس أصلًا، بلْ هو يَتحرَّكُ معه تَبَعًا، والرّيحُ لا تَتحرَّكُ مع سُليمانَ ﷺ، بلْ تُحرِّكُ سُليمانَ مع نفْسِها، فلمْ يقلِ: الرّيح مع سُليمانَ، بلْ سُليمانُ كان مع الرّيحِ[1].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾:

لمّا كانت الجبالُ أغلظَ الأرض وأثقلَها، وكان المعنى: دَعَوْنا الجبال، وسَخَّرناها للتَّأويب معه، فبادرَتِ الإجابةَ لدُعائنا؛ لِما ذكره الله تعالى في آخر سورةِ الأحزاب من أنَّ الجبالَ من جُملة مَن أبى أن يحمل الأمانةَ؛ لمّا كان كذلك؛ عُطِفَ على ذلك أخفُّ الحيوان وألطفُه؛ ليكون آيةً سماويَّة، على أنَّه يفعل في السَّماء ما يشاء، فإنَّه لو أمات الطّائر في جَوِّ السَّماء؛ لَسَقَطَ، ولا فرق في ذلك بَيْنَ عالٍ وعالٍ[2]، ففي العطف تعبيرٌ عن التَّناسق بين الأرض والسماء، بإشراك الطَّيرِ الذي يُحلِّق بين السَّماء والأرض، وهذا يُظهِر المعنى العميقَ لوحدة الكون في عبادةِ الله تَعالى، حيث تُسَبِّح الكائناتُ الأرضيَّةُ (الجبال) والجوّيَّة (الطُّيور) معًا، ففي العطفِ دلالةٌ على شُمول قدرة اللهِ تَعالى في إخضاع كلِّ شيء في الكون، من الأجسام الثَّقيلة إلى الأحياء اللَّطيفة، أرضيَّةً كانت أو سماويَّةً.

بيانُ إذعانِ الأكثَف والألطف إبرازٌ لِعظمة الخالق وقُدْرَته

معنى (أل) في ﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾، ولطيفة اختصاصها:

﴿وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ اسمُ جَمْعٍ أو جَمْعُ طائر، ولم يُبيَّن أيُّ الطَّير مرادٌ،

إفادةُ مُطلقِ الشُّمولِ في تسبيح كُلِّ طَيرٍ مع داوودَ ﷺ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 197، 198.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 457.

فالظّاهر العمومُ، فيشمل أيَّ نوعٍ من الطَّير، إذا صادفت تسبيح داوودَ عليه السلام؛ سَبَّحت معه، فاللّامُ في الطَّير للجنس، فيَنْدَرِجُ في لفظ ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ جميع أفراده، فلا يُخصُّ نوع مُعيَّن، ويكون المخاطَب موجَّهًا إلى إدْراكِ مشهَدٍ عامٍّ تتفاعل فيه الطُّيور مع تسبيح داوودَ عليه السلام، وهذا يُعزِّز استحضار مَشهد التَّسبيح بِكُلِّ تنوُّعه وجماله.

سِرُّ الجَمْعِ بين (الجبال والطير):

إظهارُ انسجامِ الخلق في عبادة الله تعالى

السِّرُّ البلاغيُّ في الجَمْعِ بين (الجبال والطَّير) في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ يكمُن في تصوير مشهد تسبيحيٍّ مَهيب يمزج بين العناصر الثَّقيلة الجامدة والأخرى الخفيفة المتحرِّكة، مِمّا يعكس وحدةَ الكون وتكامُلَهُ في عبادة الله تعالى، فكان داوود عليه السلام إذا سبَّح؛ تُسبِّح معه الجبالُ الرّاسيات، وتقف له الطيورُ الغادياتُ والرّائحاتُ، وتجاوبه بأنواع اللُّغات[1]، فهذا الجمعُ يدلُّ على تنوُّع الخلق وتكامل وظائفه رُغم اختلاف صفاته؛ ليظهر أنَّ كُلَّ الكائنات - الثَّقيلة والخفيفة - خاضعةٌ لأمر الله العظيم.

نكتةُ تقديمِ الجبال على ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾:

من جمودِ الجبال إلى حركة الطُّيور رسالة الوحدانيَّة وإظهارُ العظمة والجلال

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجبال على ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ في سياق تسبيحها؛ لتأكيدِ عَظمةِ الخالق في جعل ما هو صُلْبٌ جامد يُسبِّح، مِمّا يبرزُ قُدرة الله سُبحانه على أن تشملَ عبادتُهُ كُلَّ مخلوق، مهما كانت طبيعته، مُؤكِّدًا بذلك وحدةَ الكونِ في عبادة الله تعالى، فكان تقديمُ تسبيح الجبالِ - وهي جامدة - أبعدَ وأعجبَ من تسبيح الطَّير[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾:

مظاهرُ الإفضالِ الإلهيِّ على نبيِّ الله داوود عليه السلام

لمّا ذَكَرَ الله ﷻ طاعةَ أكثَفِ الأرض وألطف الحيوان الذي أنشأه الله تعالى منها؛ ذكر ما أنشأه سبحانه من ذلك الأكثفِ، وهو أصلبُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 497.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 463.

الأشياء، فقال سبحانَهُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، أي: الذي ولَّدْناهُ من الجبال، فجعلناه في يده كالشَّمع يعمل منه ما يُريد بلا نارٍ ولا مطرقة[1]، والجملةُ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ قبلها، وإنَّما عُطِفَت عليها لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الخبريَّة، ووجود المناسبة بينهما؛ إذِ الجملةُ الثّانية واردةٌ لذكر فضلٍ آخرَ معطوفٍ على الأفضالِ المتقدِّمةِ.

دلالةُ صوغِ فعل التَّليين ماضيًا في ﴿وَأَلَنَّا﴾:

تجلّي العظمةِ في تطويع الحديد الصُّلب

جاء التَّعبيرُ عن فعل التَّلْيين فعلًا ماضيًا في قولِ الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾؛ إظهارًا لعَظمة اللهِ القادر على تحويل الشَّيء عن مادَّته الطَّبيعيَّة الصُّلبة إلى مادَّة أُخرى مُطاوعةٍ لَيِّنة، وفي تحويل هذا المعدن إيحاءٌ بأنَّه تَمَّ دون نَصَبٍ أو تَعَبٍ[2]، فالفعلُ الماضي يحملُ دِلالَةً تامَّةً على الإنجاز والتَّمكين، ممّا يوحي بأنَّ هذا التَّحوُّلَ في خصائص الحديد وقع دون مَشَقَّةٍ أو جهد، وهذا يُؤكِّد استجابةَ المخلوقاتِ لقدرة الله تَعالى المُطلقَةِ.

لطيفةُ إسنادِ الفعل ﴿وَأَلَنَّا﴾ إلى ضمير العظمة:

تجلّيات العظمةِ الإلهيَّة في تليين الصُّلب في مشهد التَّمكين والفضل الرَّبّانيّ

قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ معناهُ: ألَنّا الحديدَ الذي ولَّدناه من الجبال، فجعلناهُ في يده كالشَّمع والعجين يعمل منه ما يشاءُ مِن غير نارٍ ولا ضربِ مطرقة، أو جعلناه بالنِّسبة إلى قوَّته الَّتي آتيناه إيّاها ليِّنًا كالشَّمع، بالنِّسبة إلى سائر القوى البشريَّة، وهو في قدرة الله تعالى يسيرٌ، فإنَّ الحديدَ يَلينُ بالنّار، وينحلُّ حتَّى يصيرَ كالمداد الذي يُكتَبُ به، فأيُّ عاقلٍ يستبعد ذلك مِن قدرةِ الله؟[3] فهذا الإسنادُ إلى ضمير العظمةِ والكبرياءِ ﴿وَأَلَنَّا﴾ يُعبِّر عن عظمة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 459.
(3) الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 352، والمنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 291.

الخالق في التَّصرُّف بخصائص الأشياء كيفما يشاء، ويُؤكِّد دلالةَ التَّمكين والاستجابة التّامَّة لمشيئة الله سُبحانَهُ، مِمّا يُظْهِر صِفَةَ العظمة والإعجاز الإلهيّ في تسخيره وفضله.

معنى (اللّام) في ﴿لَهُ﴾، ونكتة تقديم ﴿لَهُ﴾:

تجسيدُ التَّخصيصِ وتأكيد الفضل والتكريم الإلهيِّ في التَّسخير

قولهُ تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، أي: له خاصَّة أيضًا؛ ليعمل منه لبوسًا للحرب، ولم يُلِنْهُ لأحَدٍ قبلَهُ[1]، فأتتِ اللّام في ﴿لَهُ﴾؛ للدِّلالة على الاختصاص، وقُدِّم الجارُّ والمجرور على المفعول ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾؛ لإرادةِ مَعنى التَّخصيص والتَّكريم؛ إذ إنَّ إلانةَ الحديدِ لداوود عليه السلام جاءت تخصيصًا له بفضلٍ خاصٍّ من الله تَعالى، فيصيرُ الحديدُ طَيِّعًا بيدهِ على وجهٍ يُجاوِزُ العادَةَ.

موقعُ جُملةِ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ مِمّا قبلها:

بيانُ حكمةِ الإلانةِ وعلّتها في كونها أمرًا إلهيًّا

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، أي: وعهدنا إليْهِ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ، وهي الدُّروعُ الكاملةُ[2]، كأنَّه قيل: وألَنّا له الحديدَ لأنْ يعملَ سابغاتٍ، ويكون بمعنى: وألَنّا له الحديدَ؛ لِأَنْ يعملَ سابغاتٍ، وتوصَل ﴿أَنِ﴾ بلفظ الأمر، ومثل هذا مِن الكلام قولك: أَرْسِل إليه أَن قُمْ إلى فلان[3]، فهذه الجُملة تُبيِّن الحِكمة مِن كون الله تعالى ألانَ له الحديدَ، وهوَ أَن يعمل منه الدُّروع للمجاهدين في سبيلِ الله تعالى[4]، وذَكَرَ عِلَّة الإلانة بصيغة الأمرِ إشارةً إلى أنَّ عملَهُ كانَ للهِ تَعالى وبأمرِهِ[5].

معنى ﴿أَنِ﴾ في جُملة ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾:

التَّفنُّنُ في التَّعبيرِ تعليلٌ لإلانة الحديد، وتفسيرٌ للأمر بالصِّناعة

(أنْ) في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ مصدريَّة، والمصدر المنسبكُ منصوبٌ على نزعِ الخافض، والتَّقدير: ألنّاه لعمل سابغاتٍ[6]، ويجوز

(1) ملا حويش آلغازي، تفسير القرآن العظيم عبد القادر: 2/ 498.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 222.
(3) الواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 325.
(4) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 88.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.
(6) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 526.

أن تكون ﴿أَنِ﴾ هُنا تفسيريَّةً؛ لأنَّ إلانةَ الحديد له في معنى الأمر بأن يَستعملَهُ[1]، فهي مصدريَّة أو مُفسِّرة[2]، ولمّا كان من شرط المُفسِّرة أن يتقدَّمها ما هو بمعنى القول، ولم يتقدَّم هنا؛ قُدِّر ما هو بمعنى القول، والمعنى: وأمرناهُ أن اعْمَل، والمفسَّر مطويٌّ غيرُ مذكور في اللَّفظ، يكشفه التَّدبُّر، والتَّقدير: وأَلَنّا لَهُ الحَديدَ، وأَوصَيْناهُ أَنِ اعْمَلْ سابغاتٍ، فأبان الله ﷻ لداوود عليه السلام الغايةَ من إلانة الحديدِ له.

دلالةُ الأمرِ في جُملة: ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾:

تَعَلُّمُ الحِرَفِ والصِّناعاتِ فَخْرٌ وتواضُعٌ

في قوله الله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ دَليلٌ على تعلُّم أهلِ الفَضلِ الصَّنائِعَ، وأنَّ التَّحَرُّفَ بها لا يَنقُصُ من مناصِبهم، بل ذلك زيادةٌ في فَضلِهم وفَضائِلِهم؛ إذ يَحصُلُ لهم التَّواضُعُ في أنفُسِهم، والاستِغناءُ عن غيرِهم، وكَسْبُ الحلالِ الخَليِّ عن الامتنانِ، وفي الصَّحيحِ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وإنَّ نَبيَّ اللهِ داوودَ عليه السلام، كانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[3]، فالآيةُ فيها دَليلٌ على الاكتِسابِ بعَمَلِ اليدِ[4].

والأمرُ في ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ يدلُّ على النُّصح والإرشاد؛ لِما يترتَّب عليه من مصالِحَ دنيويَّةٍ ودينيَّةٍ، ولا ينافي هذا أن يكونَ داوودُ عليه السلام مأمورًا على سبيلِ الإلزامِ من الله سُبحانَهُ.

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾:

الاهتمامُ بجودة الصَّنعةِ

في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾: حذْفٌ لِلَفْظِ الدُّروع؛ استغناءً بالصِّفة عن الموصوف، والتَّقدير: (دروعًا سابغات)[5]؛

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 196، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 11.
(3) أخرجه البُخاري من حديثِ المِقْدامِ بنِ مَعدِ يَكْرِبَ رضي الله عنه، يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، برقم: (2072).
(4) القصّاب، النُّكت الدالة على البيان: 3/ 687، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 267.
(5) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 362.

وذلك لظهورهِ مِنَ المقام؛ إذ شاع وصفُ الدُّروع بالسّابغاتِ والسَّوابغِ حتّى استغنَوا بذكرِ هذا الوصفِ عن الموصوف[1]، والسِّرُّ في حذفِ الموصوف والإبقاء على الصِّفة: الاهتمامُ بجودة الصَّنعة مِن أجْلِ العنايةِ بفائدةِ هذه الدُّروعِ، وهي أنْ تكونَ سابغةً تامَّةً؛ إذ المطلوب أن تكون الدِّرعُ سابغةً لا مُجرَّدَ درعٍ[2].

سِرُّ اختيارِ صنعةِ الدُّروع دون غيرها من وسائل الحرب:

في صناعةِ الدُّروعِ وقايةٌ للرّوح وسعيٌ نحو حفظ الآدمي المكرَّم عند الله تعالى

في اختيار اللّهِ ﷻ لنبيِّه داوود ﷺ صناعة الدُّروع دون غيرها من أنواع السِّلاح لفتةٌ لطيفةٌ؛ لأنَّ الدُّروع فيها وقايةٌ للرّوح التي هي مِن أمره، وسعيٌ في حفظ الآدميِّ المكرَّم عند اللّه تَعالى مِن القتل، فالزَّرّاد خيرٌ من القوّاس والسَّيّاف وغيرهما[3]، وفي قَولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ أيضًا دليلٌ على إباحةِ لُبْسِ الدُّروعِ، وأنَّها لا تكون مؤَثِّرَةً في التَّوكُّلِ، والفِرارِ مِن الأجَلِ، وتكونُ حِرزًا بينَ لابِسِها وبينَ ما يتَّقيه مِنَ الطَّعْنِ والجَرْحِ، وجُنَّةً مِن وصولِ المكارِهِ إلى المكانِ، والتَّوكُّلُ قائمٌ على حالِهِ[4].

معنى (الواو) في جُملة: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾:

التَّوجيهُ الإلهيُّ في تجويد العمل وإتقانه بعد الأمر به

الجُملةُ الفعليَّةُ ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ معطوفةٌ بالواو على جملة ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾[5]، عَطْفَ أمرٍ على أمرٍ إلّا أنَّ هذا الأمرَ بالتَّقدير هو أمْرُ توجيهٍ من اللّه ﷻ، بإتقان العمل وإحسانِهِ وضبطِهِ على أحسن وجهٍ له[6]، فهو أمرُ إرشادٍ إلى الاقتصادِ في نسج الدُّروعِ وتأليفها على قَدْرِ الحاجة بلا مُجاوزة للحدِّ في شيء منها[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 156.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 23.
(4) القصّاب، النُّكت الدالة على البيان: 3/ 687.
(5) عبد الواحد صالح، الإعراب المفصل: 9/ 319.
(6) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 786.
(7) السّيواسي، عيون التَّفاسير: 3/ 312.

وبين جملة ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ والجملة قَبْلَها: توسُّطٌ بينَ الكَمالَيْن؛ لاشْتِراكِهما في الإنشائيَّة، ولِما بينَهُما مِن التَّناسُبِ الظّاهر في المعنى.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردة (التَّقدير) دون (الإحكام):

الإرشادُ الإلهيُّ في توازن الدُّروع بين الخِفَّة والمتانة

معنى ﴿وَقَدِّرْ﴾: اجعلْهُ على تقدير، والتَّقدير: جَعْلُ الشَّيءِ على مِقدارٍ مخصوص[1]، وتقديرُ الدُّروع: جَعْلُها مُقدَّرةً متناسبة[2]، وقد كانت الدُّروعُ قبل داوودَ ﷺ ثِقالًا، فلذلك أُمِرَ هو بالتَّقدير فيما يَجْمَع الخِفَّة والحصانة، أي: قَدِّرْ ما تأخذُ مِن هذين المعنيَين بقِسْطه، فلا تَقصدِ الحصانةَ، فيثقلَ، ولا الخِفَّة فيُزيلَ المنعة، وذهب بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ التَّقديرَ الَّذي أُمِرَ بهِ في قدر الحَلْقَة، أي: لا تعملْها صغيرةً، فتضعفَ، ولا يقوى الدَّرعُ على الدِّفاع، ولا تعملْها كبيرةً، فتثقلَ على لابسها، ويُنال لابسُها من خلالها[3]، ويحتمل أنَّ التَّقديرَ في الدُّروع يكون في المسمار، أي: لا تجعل مسمارَ الدِّرعِ رقيقًا فيقلِقَ، ولا غليظًا فيَفصِمَ الحِلَقَ[4].

معنى ﴿ٱلسَّرْدِ﴾، ولطيفة التَّعبير به دون (النسج):

في السَّردِ دلالةٌ على الإحكام والاتِّصال في نسج الدُّروع ونَسَقِها

﴿ٱلسَّرْدِ﴾: نسجُ الدُّروع، ويُقال: السَّرد والزَّرد، كما يُقال: السَّرّاد والزَّرّاد لصانع الدُّروع، والسَّرد أيضًا: الخَرْزُ، يقال: سرد يَسرُد؛ إذا خرز، ومنه سَرْدُ الكلام؛ إذا جاء به مُتواليًا، وسَرْدُ الدُّروع: إحكامُها، وأن يكونَ نِظام حِلقها غير مُختلفٍ[5]، من خلال تركيبِ حِلَقِها ومساميرها التي تشدُّ شُقَق الدِّرع بعضها ببعضٍ، فهي للحديد كالخياطةِ للثَّوب، والدِّرع توصف بالمسرودَةِ كما توصف بالسّابغة[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 157.
(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 89.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 267، وابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 408.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 363، والقنوجي، فتح البيان: 5/ 425.
(5) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 5892، والواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 488، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 5/ 425.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 157.

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿وَقَدِّرْ﴾:

الأمرُ في ﴿وَقَدِّرْ﴾ يُراد به الدِّلالة والإرشاد؛ لاشتمالها على تحصيلِ المنافِعِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

الأمـرُ العـدلُ في الأشـيـاء تجـلٍّ للتَّناسقِ الكونيِّ وعـدم التَّبـايُـن لِلمخلوقاتِ

والآيةُ دالَّةٌ على العدل في الصِّناعة؛ إذ لا بُدَّ منه في الخَلقِ والأمرِ، فلا بُدَّ مِن التَّسويةِ بينَ المتماثِلَين، فإذا فُضِّل أحدُهما؛ فسَدَ المصنوعُ، كما في مصنوعاتِ العبادِ، إذا بَنَوا بنيانًا؛ فلا بدَّ مِن التَّسويةِ بينَ الحيطانِ؛ إذ لو رُفِعَ حائطٌ على حائطٍ رَفعًا كثيرًا؛ فَسَد، وكذلك إذا صُنِعَت ملابِسُ للآدميّينَ؛ فلا بدَّ من أن تكونَ مُقدَّرةً على أبدانِهم لا تَزيدُ، ولا تَنقُصُ، وكذلك ما يُصنَعُ مِن الطَّعامِ لا بُدَّ أن تكونَ أخلاطُه على وجهِ الاعتدالِ، والنّارُ التي تَطبُخُه كذلك، ولهذا قال اللّهُ تعالى لداوود: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، أي: لا تُدِقَّ المسمارَ، فيَقلقَ، ولا تُغلِظْهُ، فيَفصِمَ، واجعَلْهُ بقَدَرٍ، فإذا كان هذا في مصنوعاتِ العبادِ - وهي جزءٌ مِن مصنوعاتِ الرَّبِّ سُبحانه - فكيف بمخلوقاتِه العظيمةِ التي لا صُنعَ فيها للعبادِ، كخَلقِ الإنسانِ وسائرِ البهائِم، وخَلقِ النَّباتِ، وخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ والملائكةِ؟ فالفَلَكُ الذي خَلَقَهُ اللّهُ تعالى، وجعَلَه مستديرًا ما له من فُروجٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: 3 - 4]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ [الذاريات: 7]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: 6]، فهو سُبحانَه سَوّاها، كما سوَّى الشَّمسَ والقمَرَ وغيرَ ذلك مِن المخلوقاتِ، فعَدَل بيْنَ أجزائِها، فالعَدلُ والتَّسويةُ لازِمٌ لجَميعِ المخلوقاتِ والمصنوعاتِ، فمتى لم تُصنَعْ بالعَدلِ والتَّسويةِ بين المتماثِلَين؛ وقع فيها الفَسادُ[1].

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 16/ 133.

التَّوجيهُ إلى الاقتصاد في الكسب بقدر الحاجةِ والإرشاد إلى الاشتغال بالعبادة

وفي التَّقديرِ أيضًا إشارةٌ وإرشاد إلى عدم الاستغراقِ في شَغْلِ الوقت في الكسب وطلبهِ، أي: أنَّك غير مأمورٍ به أمر إيجابٍ إنَّما هو اكتساب، والكسب يكون بقدرِ الحاجةِ، وباقي الأيّام واللَّيالي للعبادة، فقدِّر في ذلك العمل، ولا تشتغل جميع أوقاتِكَ بالكسب، بل حَصِّل به القوتَ فَحسب، ويدلُّ عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالسَّرد:

الإيماءُ إلى بلوغِ كمالِ الحماية ودِقَّة الصّناعة

لمّا كان السَّردُ الخَرْزَ في الأديم وإدخالَ الخَيْطِ في موضع الخَرْزِ؛ شُبِّهَ إدخالُ الحلْقَةِ في الأخرى بلُحمَةٍ لا طرَفَ لها بمواضع الخرزِ، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة الأصليَّة، فقال: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾، أي: النَّسج بأن تكونَ كُلُّ حلقةٍ مُساويةً لأختها مع كونها ضيِّقةً؛ لئلّا يَنْفُذَ منها سَهْمٌ، ولتكن في تحتها بحَيْثُ لا يقلعها سيف، ولا تثقلُ على الدّارع، فتمنعُهُ خِفَّة التَّصرُّف وسُرعة الانتقال في الكَرِّ والفَرِّ والطَّعن والضَّرب في البرد والحرِّ[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾:

التَّرغيبُ في تحقيق غاية الخَلْقِ عبرَ الاقتصادِ في الكسب والإكثار من الصّالحات

قولهُ تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾، أيْ: أَحْسِنِ الصَّنعةَ وأَحْكِمْها، وقلنا له ولأهله: اجتهدوا في العملِ الصّالح، وأخرجوهُ على الوجه المرضي[3]، فَلَسْتُم - يا آلَ داوود - مخلوقينَ إلّا للعملِ الصّالح فأكثروا منه، وأمّا كَسْبُ القوتِ، فاقْتَصِدوا فيه[4]، فَفي تعقيبِ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾، بقوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا يَستغرِقُ في الدُّنيا، ولا يَلتفِتُ إلى زَخارفِها، وأنَّه يجبُ أنْ يَعمَلَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 196، والشِّربيني، السراج المنير: 3/ 354.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 458.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 786، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 136.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486.

صالحًا[1]، وفيه أيضًا أنَّه يجبُ على مَن أنعَمَ اللّٰهُ تعالى عليه نِعمةً أن يَقومَ بشُكرِها بالعَمَل الصّالح[2].

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ النَّحويِّ الدّال على معنًى جديدٍ يرتبط بما قبله[3]، وهي تُضيف توجيهًا جديدًا بعد أمر داوود عليه السلام بإتقان العمَل، فجاء الأمرُ بعمل الصّالحات عامًّا، ويكون هذا التَّوجيهُ شاملًا لجميع أعمالِ الخيرِ، وبهذا تَحْمِلُ الواوُ دلالةَ التَّكامل بَيْنَ الجزأين، ممّا يُشير إلى إتمام النَّصيحة الإلهيَّةِ في إتقان العمل والإخلاصِ في العمل الصّالح، ليكتملَ مقصدُ الأمر.

نكتةُ الالتفاتِ من خطاب المُفرَد إلى خطاب الجَمْعِ:

إبـرازُ شموليَّة الخِطاب القرآنيّ من الأمر بالفعل الـخـاصّ إلى الوصيَّة العامَّة

في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ التفاتٌ، وهو مظهرٌ من مظاهر العُدول في الأسلوب بالانتقال مِنَ الخِطاب للمُفرد في قوله: ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٍ﴾ إلى الجماعة، والمقصودُ بالضَّمير داوود عليه السلام وأهله، ولو لم يَجرِ لهم ذِكْرٌ؛ لدلالة ذِكْرِه عليهم، أو هوَ خطابٌ لهم كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾، أو خطاب له بصيغةِ الجماعة تعظيمًا[4]، ففيه تلوين الخطاب، وسِرُّه: أنَّ الأوَّلَ فِعْلٌ خاصٌّ به، فخصَّ الخطابَ به عليه السلام، والثّاني عامٌّ له ولأهله[5].

نُكتةُ حذفِ المفعول:

التَّنبيهُ على مقاصد العمل الصّالح

﴿صَٰلِحًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ نعتٌ لمصدر محذوفٍ، حيث حُذِفَ الموصوف (عملًا) في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وأُقيمَت الصِّفةُ ﴿صَٰلِحًا﴾ مُقامه، والتَّقديرُ: واعملوا عملًا صالحًا خالصًا مِنَ الأغراضِ[6]، فيما يتعلَّق بأمور دينِكم ودنياكم،

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 529، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 199.
(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 95.
(3) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1876.
(4) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 11/ 376.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 466.
(6) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 268، والجبلي، البستان في إعراب مُشكلات القرآن، ص: 159.

لا في عملِ الدُّروع خاصَّة لعموم الخطاب، ولَم يُخلق الإنسانُ إلّا لأن يعمل صالحًا، وأوَّلُهُ عبادةُ الله تعالى، ثُمَّ صيانة النَّفس من مَشاقِّ الدُّنيا والآخرة، ثُمَّ الأدنى فالأدنى حتَّى الحيوان، يُؤيِّدُ هذا قوله بعدُ: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ إذ لو كان خاصًّا بالدُّروع؛ لما احْتيجَ إلى هذه المُراقبة المُؤكَّدة، هذا وقد ظَهَرَ أنَّ الحِكمةَ من إلانَةِ الحديدِ هو تَعلُّمه هذه الصَّنعة التي هي من لوازمِ الجهاد الذي هو أحدُ أركانِ الدّين[1]، ففي هذا حثٌّ على الصَّلاح والإخلاص، وتنبيهٌ إلى أنَّ الصَّلاح من صفات العمل المقبولِ الذي به يُجازى صاحبُهُ، وإرشادٌ إلى أهمّيَّة أن يُقرَنَ الإتقانُ بالنّيّة الصّالحة، فالعمل الصّالحُ لا يقتصر على أداء الحرفةِ بإتقانٍ فحسبُ، بل يجب أن يُصاحبَهُ تَوَجُّهٌ صالحٌ وتقوى.

عِلَّةُ فصل قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

التَّعليلُ البليغ لتمام الحثِّ على الامتثال

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لوُقوعه تعليلًا للأمر المتقدِّم في قوله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾، ولاختلاف الجُملتين خبرًا وإنشاء، فالإنشائيَّةُ تأمرُ بالعمل، بينما الجُملةُ الخبريَّة المُتمثِّلة في: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تُعلِّلُ هذا الأمر، وتُحفِّز على تنفيذه[2]، فيكون بين الجملتين كمالُ الانقطاعِ.

والآيةُ فيها بيان أنَّ الله سُبحانه مُطَّلِعٌ على الأعمال، ويُجازي عليها، وهذا التَّنوُّع بين الخبر والإنشاء يُعطي تمايزًا دِلاليًا يُقَوّي أثرَ الكلام، ويُشَجِّعُ المُتلقّي على الامتثال للأمر، خصوصًا أنَّه جاء مُؤَكِّدًا لحقيقةِ علمِ الله تعالى الكامل والمُراقبة المُطلقة، مِمّا يدفع الإنسان إلى الالتزام بالإتقانِ والإخلاصِ.

(1) ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 499.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 125، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 268.

غَرَضُ توكيدِ الخبر في قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

عَلَّلَ النَّظم الكريم الأمر بعمل الصّالحاتِ مُؤكِّدًا على وجه التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[1] في قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فإنَّ مَن يعلمُ أنَّه بمرأًى من المَلِكِ؛ اجتهد في حُسْنِ العمل وتزكية الباطن[2].

التَّعبُّدُ بمرتبة المراقبةِ محفِّزٌ على الإتقان والخشية

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما) في ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

الاسمُ الموصول (ما) في قول الله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يُشير إلى شموليَّة العلم الإلهيِّ لجميع أعمال الإنسان، سواء أكانت خفيَّةً أم ظاهرةً، فاللهُ تعالى بصيرٌ بكُلِّ ما يعملُهُ العبادُ من خير وشَرٍّ، وقليلٍ وكثيرٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: 16][3].

تأكيدُ الإحاطةِ الإلهيَّة بأفعال الإنسان تفصيلًا وإجمالًا

ولم تُذكرِ الأعمالُ بلفظها لكثرة أفرادِها وعدم انحصارِها، فكان التَّعبيرُ بالموصول بدلًا مِنَ التَّنصيص على الأعمال استيعابًا للأعمال بلفظٍ أخصَرَ وأوجزَ، فيشمل كلَّ ما يقوم به العبدُ من الأعمال، مِمّا يُضفي على النَّص معنى الإحاطة التّامة، ويُعزِّز في نفس السّامع الشُّعور بالرَّقابة الدّائمة لكلِّ أفعالِه وأقوالِه ونيّاته وتصرُّفاته، وهذا مِمّا يزيد من أهمّيَّة الإخلاص والتَّقوى في الأعمال، ويؤكِّدُ على ضرورة الالتزام بالصَّلاح والإتقان؛ لأنَّ اللهَ تعالى بصيرٌ بكلِّ ما يصدر عن الإنسان، صغيرِه وكبيرِه، سواءٌ أكان ذلك العمَلُ ظاهرًا للنّاس أم خفيًّا[4].

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

ضميرُ الجماعةِ في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ قولِه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

التَّوجيهُ الجماعيُّ في الخطاب الإلهيِّ تأكيدٌ على عموم الالتزام بالعمل الصّالح

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 461.

(2) النَّيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 486، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 24.

(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 90.

(4) الجيلاني، تفسير الجيلاني، ص: 411، لجنة من العلماء، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم، ص: 250.

بَصِيرٌ﴾ يعود على المُخاطَبين بالفعل السّابق في الآية: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، وهم داوود ﷺ وآلُه[1]، فالخطابُ موجَّهٌ لداوود وأهل بيته ابتداءً، مع التَّنبيهِ إلى عموم الخِطاب؛ ليشملَ أتباعَهُ وأهلَ الإيمان مِن بعدِهِ عامَّةً، مِمّا يقتضي التَّوجيهَ القرآنيَّ العامَّ في مثل هذه الأوامر إلى الجماعةِ؛ للالتزام بالعمل الصّالح ومُراقبة اللّهِ تَعالى في جميع الأعمال.

نُكتةُ تقديمِ المعمول ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، فقوله تعالى: ﴿بَصِيرٞ﴾ هو المُؤخَّر، والمُقدَّم هو معمولُهُ: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ومن القواعدِ المُقرَّرة أنّ تقديمَ المعمول يدلُّ على الحَصْرِ والقصرِ، فكان المعنى: أنَّ اللّهَ تعالى بصيرٌ بما يعملون من دونِ غيرِهِ، مع أنَّه بصيرٌ بكلِّ شيءٍ، ونُكتةُ التَّعبيرِ بما هو في الظّاهر صيغةُ حصر الرَّدع عن المُخالفة، كأنَّهُ لو لم يكنِ اللّه تعالى بصيرًا بالشَّيء؛ لكان بصيرًا بأعمالكم، فَلَمّا كان الإنسانُ قد يقول: إنَّ اللّه تعالى لا يُبْصِر عملي؛ جعل اللّه تعالى الصّيغة دالَّةً بظاهرها على الحصرِ، حتَّى لا يدّعي مدَّعٍ أنَّ اللّه تعالى ليس عالمًا بعمله، هذا مِن وجهٍ، ومِنْ جهة أُخْرى لمُناسبة فواصلِ الآيات[2].

إظهارُ خصوصيَّةِ الإحاطةِ دفعٌ لتوهُّم غياب الرَّقابة الإلهيَّة

نُكتةُ صَوْغِ ﴿بَصِيرٌ﴾ على (فعيل):

البصيرُ مِن أسماء اللّه الحُسنى هو الذي يُبصر كُلَّ شيءٍ وإن دقَّ وصَغُر، وأحاط بصرُهُ بجميع المُبصرات في أقطار الأرضِ والسَّماوات، حتَّى أخفى ما يكون فيها، فإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ يراهُ، ويُبْصِرهُ، لا يخفى عليه مِن ذلك شيءٌ[3]، وصيغةُ (فعيل) تشير إلى

الإشارةُ إلى شدَّةِ التَّمكُّن والثَّبات في الوصفِ والمُبالغةِ فيه

(1) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/ 879، والبغويّ، تفسير البغوي: 3/ 672.
(2) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 90.
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 946.

شِدَّة التَّمكُّن والثَّبات في الوصف والمُبالغة فيه، فاللّهُ تعالى عظيمُ البصرِ، كثيرُ الإبصار، نافذُ البصرِ ﷻ، ومعنى الآية: إنّي بما تعملُ أنتَ وأتباعك ذو بصَرٍ، لا يخفى عَليَّ منه شيءٌ[1] مُطَّلعٌ على عملِ كُلِّ عامل، فهو سُبحانه بصيرٌ بما يعمل العاملون، يكشف ما في العملِ مِن عَيْبٍ أو عِوَجٍ، ويُجازي المُحسِن على إحسانه، والمسيءَ بإساءته[2].

بلاغةُ الكنايةِ ﴿بَصِيرٌ﴾:

اللّهُ ﷻ بصيرٌ بكلِّ موجودٍ برؤيتِه، ومن عرف أنَّه البصيرُ راقبَهُ في الحركات والسَّكنات، حتَّى لا يراهُ حيث نهاه، أو يفقده حيث أمرَهُ، وفي ذكرِ اسمِ البصير مع المعنى الأصليِّ هُنا كنايةٌ عن الجزاء عن العمل الصّالح[3]، وهذا ترغيبٌ في العمل الصّالح، وتحذيرٌ ووعيد مِنَ التَّقصير والإهمال[4].

في التَّعبيرِ بالبصيرِ تحفيزٌ للإنسان على الإحسان في العمل وتجنُّب التَّقصير

مُناسبةُ ختْمِ الآية الكريمةِ بِصفة البصر:

بعد أن وردَ الأمرُ بالعمل الصّالح في الآية الكريمةِ، خُتِمت باسم اللّه البصير؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللّهَ تعالى يرى، ويُبصر التزامَ العبادِ بذلك الأمر، وفي هذا ما لا يخفى من التَّنبيهِ والإغراء بإصلاح العمل، والإخلاص فيه؛ فتذكيرُ العبدِ بأنَّ اللّهَ تعالى بصير؛ يُلزمه التَّوجُّه للّهِ تعالى بنيَّة خالصة، مع سَعْيِه لتحقيقِ أمرِ اللّهِ سُبحانَهُ على وجهٍ مُتكامل[5].

ارتباطُ المُراقبةِ بالأمر بالعمل تحقيقٌ لصلاحه والإخلاص فيه

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعل والعمل:

الفعلُ كونُ الشَّيءِ مُؤثِّرًا في غيره[6]، ولفظُ الفعلِ أعمُّ من معنى

العملُ فِعْلٌ صادر بالقصدِ، والفعل أعمُّ منه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 362.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 786.
(3) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 157.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 430.
(5) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 202.
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 168.

سائر أخواته، نحو: العمل، والصُّنع، والإبداع، والإحداث، والخلق، والكسب، أمّا العملُ؛ فهو كلُّ فعلٍ صادر بالقصدِ، فالعمَلُ لا يُقال إلّا لِما كان من الحيِّ دون ما كان من الجماد، ولِما كان بقصدٍ وعلمٍ دونَ ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ[1]، فهو أخصُّ من الفعل[2].

والعمل أيضًا لا يُقال إلّا ما كان عن فِكْرٍ ورويَّة، ولهذا قُرِنَ بالعِلْم، فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعضُ الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظِ العِلم؛ تنبيهًا أنَّه مِن مقتضاه[3].

فالفعلُ لفظٌ عامٌّ، يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلمٍ أو غير علم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان مِنَ الإنسانِ والحيوان والجماد[4]، والعملُ أخصُّ منه.

(1) المناوي، التَّوقيف على مهمات التعاريف، ص: 247، والرّاغب الأصفهاني، المفردات، ص: 348.
(2) الرّاغب، المُفردات، والسمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: 3/ 124.
(3) الرّاغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/ 119.
(4) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 322.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»